شعر التجربة في أدبنا

بقلم محمد خير حلواني

اخذت تظهر في الايام الاخيرة نظرات نقدية تستهدف الى اعادة النظر في التراث الادبي القديم عند العرب ،وتسعى الى تقويمه على ضوئها وأسسها ، وكان للتجربه اهميه عظمى في هذه النظرات ، وما من شك في ان التجربه تمد الشعر بعناصر غنية ، اذ تكسبه خصبا في الخيال ، وفيضا في العاطفة ، وتعمل على تكوين الصوره ، وتخلصها من شوائب المحاكاة والتقليد ، كما تمنحه الوانا ذاتية وجدانيه تختلف عند الشاعر الواحد لاختلافها هي نفسها بين وقت واخر ، ومن هنا يستطيع الناقد ان يكشف عن اعماق الاديب حين يتحسس خطوط تجربته وابعادها ، وتتلامح له هيمنة الحياة الاجتماعية على الافراد ، او تفاعل الجانبين بعضهما مع بعض .

والباحث المدقق في تراثنا الشعري القديم يقف امام ظاهرة واضحة ، هي ان رصيدا ضخما منه ذهب هدرا فلم يصدر عن احساس اصيل ، ولا عن تجربة حياتية ، وانما قدم هدية للملك ، او دفعت اليه طوارىء خارجة عن حياة الفرد الشاعر ،وربما استطعنا ان نرجع هذا الى فناء شخصية البدوي في قبيلته ايام الجاهلية ،والى اتخاذ الخلفاء والامراء شعراء خاصين يستغلون المناسبات الطارئة ليغدقوا عليهم مايشاؤون من نعوت قد يكونون بريئين منها ، ثم الى تبلور الشعر وتحنيطه في فنون خاصة لايتعداها ، ومعان مطروقة مخططة يتعاقب عليها الاسلاف والاحفاد من الشعراء ، وفي استعارات مكررة شاعت في عدد جم من القصائد والمقطعات .

ولسنا نعني بهذه المقدمة ان الشعر العربي القديم خلو من ظواهر غنية ، وهل نستطيع ان نغفل اسماء لامعة لاتقل وميضا في هذه النقطه عن شعرائنا المعاصرين أمثال البياتي والسياب والقباني ونازك و ..؟

ان اول شاعر يطلع علينا في الجاهلية بشعر التجربة العميقة هو عنترة العبسي ، فقد جهد ان يحقق كيانه في مجتمع قبلي يقوم على الشرف والنسب ، وعانى أزمه حادة من صراعه العنيف مع مواضعات بيئته الجائرة ،وظل يغالبها وتغالبه حتى ظهر عليها في النهاية ، ولكنه بقي مشدودا الى حياته الماضية ، يتذكرها بمرارة وحسرة ، ويحاول ان ينساها وان يطوي شبحها الوخيم .

اما تجربة النابغة فقد تكون عنيفة الا انها سطحية لاتمس اعماق الحياة الانسانية الاصيلة ، ومن هنا لاتجدنا امام اعتذارياته مشفقين عليه شفقتنا على عنترة ، ولا مستنكرين من بيئته مااستنكرناه من بيئة ذاك ، انه يأرق الليل ، ويتراقص له شبح الموت في وعيد النعمان ، اما عنترة فكان يعانق السيف والرمح ، وتسيل الدماء من جسده وجسد حصانه الادهم ، ثم ان تجربة النابغة لاتمثل الجذور الاجتماعية العميقة والمواضعات المستقرة في حياة الجاهليين ولا يقف هو طرفا في الصراع امام هذه التقاليد والاعراف كما يحدث لزميله ، واذا كان لابد من ان نلتمس للتجربة النابغية باعثا حياتيا فانه الطمع الذي دفعه الى احضان النعمان يلتمس فيها الجاه واليسار ، على حين كان عنتره يصدر في تجربته عن طمع في حياة كريمه يصيبها ،ويزهد في المال و « يعف عند المغنم » .

وهناك شاعرا تجربه اخران ، هما طرفة بن العبد البكري ، وامرؤ القيس ، وقد ران على شعر الاول مسحة من التمرد والعصيان ، ومحاولة جاده في هدم الاعراف الحياتيه وبنائها من جديد بناء يلائم حياته العابثة ، ويواكب اقباله على لذات الحياه . اما تجربة امرىء القيس فمترفه حينا ، وقاسية حينا اخر ، فهي غرامية لعوب في طل والده العظيم ، وهي متجهمه عبوس مع صاحبه عمرو على درب الروم ، وهي في لونيها استطاعت أن تضفي على شعره ألوانا من الحياه العاطفية ، وان تمنحه المنزله التي تبوأها في عصره وبعده .

ثم كان الاسلام ، وانساح العرب في الدنيا العريضة يفتحون الامصار ، ويدكون العروش ، وعاشوا تجارب جديدة حين بعدوا عن حماهم الضاحي ، فغنوا لواعج حنينهم وذابت نفوسهم حسرات على وطن وراءهم ، وهم لايدرون مع هذا أيعودون اليه سالمين غانمين ، أم تغتالهم أيدي الموت الذي يتربص بهم وراء الهضاب وبين الشعاب ، ولكننا مضطرون هنا الى ان نذكر ان شعراء الفتوحات لم يكونوا من الشهرة وبعد الصيت بحيث يفقون للشعراء التقليديين أندادا ونظراء .

وربما وقف المتنبي عملاقا بين شعراء العرب الذين يصدرون عن تجربة حية فيما يرسلون من شعر ، لقد كانت نفسه كبيره اتعبت جسمه — كما كان يقول — فهي التي حملته على ان يتحسس طريقه الى المجد تحت ظلال السيوف ، وبالفتكة البكر ، وتضريب اعناق الملوك ، وولدت فيه شموخا وكبرياء رأى بجانبهما كل شيء صغيرا تافها كشعرة في مفرقه ، ودفعته الى ركوب الاخطار وجوب البلاد ، حتى اذا تناثرت من حوله أسئلة الناس عن غاياته، لاذ بالصمت لان مايبتغيه « جل ان يسمى » .. لقد عظم المتنبي شعرنا العربي ، حين وهبه نفحات حارة من شخصيته العاتية ، بل انه منح الشعر التقليدي نفسه حياة ماكان يحلم بها ، حين ألقى عليه من ظلال تجاربه الوانا لماعة ،وهل تخفى مدائحه لكافور وما صبه فيها من آلامه وآماله ؟.

ولا مجال لعرض الوان اخرى من شعر التجربة عند الاقدمين ، ويكفي ان نتذكر هنا روميات أبي فراس ، وحجازيات الشريف ، ولواعج ابن زيدون ، وثكل ابن الرومي و .. ويكفي ايضا ان نقول هنا : ان الشعراء الفحول اضاعوا كثيرا من قصائدهم هدرا ، وانفرد عدد غير قليل بشعر التجربة ، ولكن كثيرا منهم كانوا مغمورين ، نسيتهم كتب الادب ، وأهملهم التاريخ .

ولما افاق الشرق العربي في العصور الحديثة على اصوات مدافع نابليون ، ادرك ان وراء هذه البحار الزاخرة أمما تفوقه حضارة وعلما ، فهب يقتبس منها ويتتلمذ عليها،

واصطبغت حياته بحضارة الغرب ، وتدفقت الى ربوعه تيارات فلسفيه فكرية مكنت للذاتية الفردية أن تظهر لتحقق وجودها ضمن الاطار الاجتماعي ، وأدت الترجمة والبعثات وظيفتها المطلوبة في تطعيم الادب العربي ، وكان من جراء ذلك كله ان ظهرت حركة نقدية رفع لواءها في مصر عباس العقاد وصاحباه : المازني وشكري ، وقام بأعبائها في المهجر اعضاء الرابطة القلمية ولاسيما نعيمة وجبران ، ونادى النقاد هؤلاء بشعر « الشخصية » او بشعر « الذاتية » وهاجموا التقاليد البالية في الشعر القديم ، واتخذوا اصناما معبودة وانهالوا عليها يحطمونها ، وفي ايديهم نظرات جديدة بعضها غربي وبعضها ذوقي نمته الخبرة ووسعته الثقافة العميقة .

ومهما يكن من شيء ، فان الحركة النقدية هذه وقفت الشعراء التقليديين عند مفهومات جديدة ، ووضعت امام الناشئين أسسا يجب ان يعوها بل ان يلمسوها نابعة من نفوسهم ، ووضحوا ان مهمة الشاعر لاتتوقف عند نقل الابعاد الخارجية للاشياء ، ولكنها التعبير عن انطباع هذه الاشياء في النفوس ، وما تثيره فيها من أحساسات ومشاعر ، ولقي شوقي من هؤلاء نقدا زعزع مكانته في دنياه الرفيعة ، وحمله على ان يضرب في متاهات جديدة لعله يرى فيها نبعا ثرا يروي حلوقهم الظامئة الى ادب جديد .

والواقع ان شعر شوقي لايتعدى حدود الادب القديم ، ومهما يبالغ في تقييمه المغالون فانه لايخرج عن نطاق الحدود المرسومة للشعر التقليدي عند العرب ، وهو ليس بشاعر تجربة ، بل شاعر مناسبات ، ولكنه قد يعيش تجربة غيره فيبدع أيما ابداع ، ومن من النقاد لايؤخذ بقصيدته « جبل التوباد » التي تفصح عن تجربة « قيس » ؟ ومن هنا كان غزله في مسرحياته ولا سيما « مجنون ليلى » اعذب من غزله في شوقياته .

وكان عمل هذا الجيل من النقاد مزدوجا ، ولهذا كان بالغ الاهمية ، فهم يجمعون النقد العميق الى الشعر الاصيل فاذا وضعوا الاسس النظرية ، او عالجوا النقد التطبيقي ، مضوا يقدمون نماذج شعرية لهم ، تحمل طوابع التجربة التي لاتخلو من عمل الفكر ، وسعة الثقافة ، حتى ليمكن القول : ان هؤلاء هم اول من أرسى شعر التجربة على شطآن ادبنا الحديث .

ثم ظهر الجيل الجديد ـ جيل السياب وعبد الصبور والحجازي والقباني ـ وغدا شعر التجربة امرا مألوفا ، فلا يحتاج الدارس الى طويل تأمل في دواوينهم ليقف عندهم على مايريد من هذا القبيل ، ولكنه يشهد ظاهرة جديدة لم تكن واضحة تماما في دواوين الجيل السابق لهم ، هي انهم يتوسعون في التعبير عن جزئيات التجربة ومراحلها ، ويسوقونها واقعية على شكل اقصوصة شعرية تتوفر لها عناصر فنية قيمة ، وتبدو متماسكة من الناحيتين الفكرية والعاطفيه .

كما يشهد ملاحظة جديدة هي ان صورة التعبير عن هذه التجربة قد تغيرت جذريا ، فلا التقريرية الخطابيه ولا الايقاع العروضي الرتيب ، ولا القافية الموحدة .. كل اولئك قد زال ، وحل محله همسات تسوقها اللفظة الرشيقة والموسيقى المتناغمة مع دفقات الشعور ، والصورة الموحية التي تنقل مافي اعماق الوجدان من انطباعات سليمة عن تجارب الشخصية واحوالها .

ملاحظة ثالثة تتراءى لنا في تجارب الجيل الجديد هي تلك البساطة التي تحف بها ، وتستأثر بتكوين الصورة ، وتستبد بموجيه الفكرة ، غير ان معطياتها جمة ـ على بساطتها ـ وربما كان المثل هنا خير مسعف في التعبير عن هذه الفكرة ، وليكن شاهدنا من ديوان « مدينة بلا قلب » لاحمد حجازي ، يقول من قصيدة « مقتل صبي » :

الموت في الميدان طن
الصمت حط كالكفن
وأقبلت ذبابة خضراء
جاءت من المقابر الريفية الحزينه
ولولبت جناحها على صبي مات في المدينه
فما بكت عليه عين
الموت في الميدان طن
العجلات صفرت توقفت
قالوا : ابن من ؟
ولم يجب أحد
فليس يعرف اسمه هنا سواه
. . . . . .
فالتقت العيون بالعيون
ولم يجب احد
فالناس في المدائن الكبرى عدد
جاء ولد
مات ولد ..

تبدو تجربة الشاعر في هذه القصيدة غاية في البساطة انها عارضة ولن يدوم أثرها اكثر من أيام ، ولكنه لم يقف عند حدود انفعاله الهائج ـ كما كان يفعل الشاعر القديم ـ بل اتخذ الحادثة مطية ليعبر عن حياة المدينة الصاخبة في نظر انسان ريفي مثله ، لقد غابت هنا الحياة الوادعة الحلوة ، وقامت ضجة العجلات وهديرها ، وامحت الالفة وزال التعارف ولكن « التقت العيون بالعيون » ، ثم لم يكن شيء « ولم يجب احد » .

والتجربة فوق هذا تثير في نفس القارىء خواطر كثيرة ، وتضع امام عينيه هذه الحياة الحديثة التي مزقت « الالة » وداعتها وهتكت وحدتها ، وأحالتها الى سعي حثيث وفردية ممعنة ، ويمتد في نفسه خطان متوازيان ، يمثل الاول حياة الانسان في الحضارة الزراعية ، ويمثل الثاني حياته في الحضارة الصناعية ، ونقلة الشاعر من ريفه المصري الى مدينة كالقاهرة او غيرها من المدن هي نقلة الإنسانية كلها من طور الزراعة الى طور الصناعة ..

وهكذا ينقلنا الشاعر الى أماكن بعيدة من خلال هذه التجربة التي وصفناها بالبساطة ، ويتيح لنا ـ بالايحاء ـ ان نرتاد آفاقا اخرى نستمدها من معطيات التجربة والتعبير عنها .

حلب — محمد خير الحلواني

طبعت على مطابع
دار الفكر
للطباعة والنشر
تلفون : ٢٢٢٩٢١